مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

العدد الرابع عشر
1997

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1427 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1997 أفرنجي

رأي في بداية عصر الدول المتتابعة ووصفه بالضعف والانحطاط

د. محمد عثمان علي
كلية اللغات - جامعة الفاتح

أ- بداية هذا العصر

ربط مؤرخو الآداب العربيَّة المستشرقون والعرب بين السياسة والأدب ربطاً محكماً، ومن ثم جاء تقسيمهم لعصور الآداب العربية وفق العصور السياسية التي مرَّت بها الأمة العربيَّة، وكان المستشرقون سباقين إلى هذا الاتجاه، إذ بدأ ذلك عندهم من المستشرق النمسوي جوزيف هامر جرستال سنة 1885م، وامتد إلى المستشرق الألماني كارل بروكلمان في كتابه «تاريخ الأدب العربي» الذي نشره عام 1898م، وفيه قسَّم العصور الأدبيَّة لدى العرب إلى سبعة أقسام هي:

الأدب العربي قبل الإسلام، محمد وعصره وعصر الدولة الأموية، عصر

الازدهار العباسي الأول، عصر الازدهار العباسي الثاني، العصر المغولي، العصر العثماني، العصر الحديث[1].

ولا يبعد المستشرق الإيطالي كارلو نالينو عن هذا التقسيم كثيراً، ثم إنه دمج بين العصر المغولي والعثماني فجاءت الأعصر عنده ستة هي: الجاهليَّة، فالعصر العربي الإسلامي، فالعصر العباسي الأول، فالعصر العباسي الثاني، ثم يأتي عنده ما سماه بعصر الانحطاط الذي حدد نهايته بظهور محمد علي في مصر سنة 1805م، حيث يبدأ العصر الحديث[2].

وانطلاقاً من هذه الرؤية، وتبعاً لهذا الربط بين السياسة والأدب جاءت أعمال المعاصرين العرب الأوائل في تقسيم عصور الآداب العربية، فكان أن قرر هذا الربط حسن توفيق العدل في كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية» سنة 1906م[*]، وذلك حين قال: «تاريخ آداب اللغة العربية تابع في تقسيمه للتاريخ السياسي والمدني في آنٍ واحد، لأن الأحوال السياسية والدينية تكون في العادة عامة.. ألا ترى أن ابتداء زهو اللغة العربية وقيامها بمقتضيات الملك والسياسة إنما كان ظهور الإسلام، فكان الداعي الأول الذي بعث من همم العلماء لخدمة اللغة هو الدين طلباً للوصول إلى معاني القرآن الكريم وتعرف الشريعة السمحاء». ثم مضى فقال وفق هذه التوطئة: «وعلى هذا رأينا أن نقسم الكلام على تاريخ آداب اللُّغة العربية إلى خمسة أعصر. عصر الجاهلية، عصر ابتداء الإسلام، عصر الدولة الأموية، عصر الدولة العباسية والأندلس، عصر الدول المتتابعة إلى هذا العهد»[3].

ثم جاء جرجي زيدان في سنة 1911م فسلك السبيل نفسها حين أكد هذا

---

(1) ينظر كتاب في تاريخ الأدب ـ مفاهيم ومناهج ـ حسين الواد ط. دار المعرفة للنشر، تونس 1980م، وتاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان ترجمة عبد الحليم النجار وآخرين ط. دار المعارف مصر الثانية 1977م.

(2) ينظر تاريخ الآداب العربية ط. دار المعارف مصر الثانية 1970م.

(*) إنما أراد الباحث بقوله «انطلاقاً من هه الرؤية وتبعاً لهذا الربط مؤلفات أولئك المستشرقين الذين سبقوا نالينو، أما كتاب نالينو فقد كانت محاضرات ألقيت سنتي 19910 و1911 أي بعد كتاب حسن توفيق العدل (المراجع).

(3) تاريخ آداب اللغة العربية، حسن توفيق العدل ط. القاهرة 1906م ص18.

الربط بين السياسة والآدب، فكان مما قال: «وقسَّمنا آداب اللغة العربية إلى أعصر حسب الانقلابات السياسية؛ لبيان ما يكون من تأثير تلك الانقلابات فيها، وقسَّمنا كلاً منها إلى أدوار حسب الاقتضاء، وقسَّمنا العصر العباسي إلى أطوار بحسب التقلبات السياسية»[4].

وواكب جرجي زيدان في هذا الربط أحمد الإسكندري في كتابه «الوسيط في الأدب العربي» وهو الكتاب الذي كان له تأثير كبير في مناهج الدراسة المدرسية في سائر أقطارنا العربية. فقد قسم فيه تاريخ الأدب العربي إلى خمسة أعصر هي: عصر الجاهلية ومدته ـ في رأيه ـ خمسون ومائة عام قبل الإسلام، وعصر صدر الإسلام ويشمل بني أمية، وينتهي بسقوط الدولة الأموية عام 132هـ، وعصر بني العباس وينتهي بسقوط دولتهم عام 656هـ، وعصر الدول المتتابعة التركية، وينتهي في بداية عصر النهضة سنة 1220هـ، وعصر النهضة، ويبتدىء من حكم محمد علي لمصر..[5].

وهكذا يمكننا أن نلحظ مما ذكرناه أن ثمة ربطاً محكماً قد وقع في أعمال هؤلاء الرجال بين الأدب والسياسة، فهذه التقسيمات في عصور الآداب العربية، وإن اختلفت من حيث الدمج أو التجزئة في بعضها، فإنها في واقع الأمر جعلت الأدب تابعاً للسياسة، وهذه التبعية هي التي جعلتهم يتفقون في الإطار العام الذي وضعوا فيه تاريخ الآداب العربية، ويختلفون بعض الاختلاف في نظراتهم لبعض العصور، حتى إذا ما وصلنا إلى عصر بني العباس وجدنا هذا الاختلاف عند من ذكرنا ومن جاء بعدهم يتجه نحو اتجاهات يمكن حصرها في ثلاثة: أولها ما نجده عند عامة المؤرخين الذين يقسمون العصر العباسي إلى قسمين، عصر عباسي أول، وعصر عباسي ثانٍ أو يجعلونه عصراً واحداً، ويبدأ العصر الأول منذ استيلاء العباسيين على السلطة سنة 132هـ وينتهي بدخول البويهيين بغداد سنة 334هـ، حيث يبدأ العصر الثاني منذ هذا التاريخ وينتهي بتدمير بغداد

---

(4) تاريخ آداب اللغة العربية جرجي زيدان ط. دار الهلال، القاهرة 1911م جـ1 ص35.

(5) الوسيط في الأدب العربي ط القاهرة 1911م، وطبع بعد ذلك عدة طبعات لأنه كان مقرراً على المدارس الثانوية في مصر والسودان.

على أيدي التتار سنة 656هـ، ثم يطلقون على العصر الذي يلي هذا التاريخ العصر المغولي الذي يبدأ عندهم منذ سنة 656هـ وينتهي بتولي الأتراك العثمانيين أمر البلاد العربية سنة 923هـ حيث يبدأ ما سمَّوه بالعصر العثماني الذي ينتهي ببداية عصر النهضة الحديث، وهو عصر يحدده أغلبهم بتولي محمد علي السلطة في مصر[6].

أما الاتجاه الثاني فتجده عند الدكتور طه حسين في كتابه «ذكرى أبي العلاء» الذي أصدره للقراء سنة 1922م حيث نجده يعترض على أصحاب الاتجاه الأول فيقول: «لقد ألف المحدثون الذين كتبوا في تاريخ الآداب العربيَّة أن يقسموا هذا التاريخ الأدبي بمقتضى انقسام التاريخ السياسي، ويكفي أن نحلِّل أحد هذه العصور التي قسموا إليها تاريخ الآداب وهو العصر العباسي، الذي يبدأ في التاريخ السياسي سنة 132هـ وينتهي سنة 656هـ، فالجمهور من مؤرخي الأدب يقسم هذا العصر إلى قسمين أحدهما عصر الرقي، وينتهي سنة 334هـ، وهي السنة التي ملك فيها الدَّيْلَم بغداد، والثاني عصر الانحطاط وينتهي بانتهاء الدولة السلجوقيَّة، إذْ يدلي بالآداب إلى انحطاط يستنقذها منه العصر الحديث»[7].

ثم عقَّب على ذلك بقوله: «والحق أن مؤرخي الأدب يتبعون في هذا التقسيم طريق المؤرخين السياسيين، ولكنهم يخطئون من وجهين، الوجه الأوَّل أنهم حرصوا على موافقة التاريخ السياسي فلم يوفقوا، إذ عصر الانحطاط هذا ينقسم من الوجهة السياسيَّة إلى عصرين متمايزين، والوجه الثاني حرصهم على التقسيم السياسي في هذا العصر، فإن هذا الخطأ قد أوقعهم في أغلاط كادوا يجمعون عليها، وساقهم إلى ألوان من الظلم لا يرضاه لنفسه المنصف المقتصد، فسموا العصر الثاني في الآداب العباسيَّة عصر الانحطاط، ولو أنصفوا لسموا جزءاً غير قليل من هذا العصر عصر الرقي والنهضة»[8].

---

(6) ينظر الوسيط في الأدب العربي للإسكندري وتاريخ الأدب العربي لأحمد حسن الزيات ط. دار الثقافة بيروت جـ1 ص5.

(7) ذكرى أبي العلاء ط. دار المعارف مصر ص44.

(8) نفسه ص45.

ثم مضى مقرراً وجهة نظره في تقسيم تلك الفترة فقال: «إذن فأيام بني العباس، أو، بعبارة أدنى إلى التحقيق، أيام الآداب العباسية تنقسم إلى ثلاثة أعصر: يبدأ أولها مع القرن الثاني، وينتهي بعد منتصف القرن الثالث، حيث يبدأ العصر الثاني وينتهي ببداية العصر الثالث بعد منتصف القرن الخامس الهجري»[9].

وأما الاتجاه الثالث فنجده عند الدكتور شوقي ضيف في كتبه التي أخرجها في تاريخ الأدب. فهو يقسم العصر العباسي إلى عصرين ينتهيان في سنة 334هـ، ثم يجعل هذه السنة بداية لعصر أطلق عليه «عصر الدول والإمارات» وجعل هذا العصر يستمر إلى عصرنا هذا الحديث، ويشير إلى ما قال به أصحاب الاتجاه الأول، ويرى أنهم أدخلوا ثلاثة قرون من هذا العصر ـ أي عصر الدول والإمارات ـ في العصر العباسي الذي انتهوا به حتى سنة 656هـ، وهي السنة التي دخل فيها التتار بغداد وقوّضوا ما كان فيها من حضارة ومدنية ثم قال: «كان المؤرخون يسمون الحقب التالية حتى الغزو العثماني لمصر والشام والعراق باسم العصر المغولي، وسموا فترة حكم العثمانيين باسم العصر العثماني»[10] وكل ذلك في رأيه تصور مخطىء «لأن سلطان الخلافة العثمانية تقلصت ظلاله منذ سنة 334هـ، بحيث لا يكاد يبقى للخلفاء العباسيين منه في كثير من الأمر سوى بغداد، فقد كانت إيران بيد بني بويه، ونفس العراق أظله سلطانهم، وكانت البحرين واليمامة بيد القرامطة، وكانت الموصل وحلب بيد الحمدانيين، ومصر والشام بيد الأخشيديين، والمغرب وإفريقية بيد الفاطميين، والأندلس بيد عبد الرحمن الناصر، وتعاقبت دول كثيرة باليمن وفي أنحاء الجزيرة العربية، وبالمثل في كل البلدان والأقاليم المذكورة، بحيث يصبح من الخطأ أن تنسب القرون الرابع والخامس والسادس حتى منتصف القرن السابع إلى الخلافة العباسية، وحتى ما بقي لها من اعتراف في بعض الدول والإمارات إنما كان اعترافاً اسمياً، لا يدل على أي سلطان وراءه، ومن الخطأ الإبقاء على تسمية

---

(9) نفسه ص52.

(10) تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، الجزيرة العربية والعراق وإيران، ط. دار المعارف مصر 1980 ص5.

القرون الثلاثة التالية لغزو التتار بغداد باسم العصر المغولي، بينما كان سلطان المغول لا يتجاوز إيران والعراق دون بقية العالم العربي، وتلك البقية هي الشطر الأكبر منه، الجزيرة العربية والشام ومصر والمغرب والأندلس»[11].

ثم انتهى إلى تحديد العصر الذي رآه فقال: «لذلك رأينا أن ندمج العصر المغولي في عصر الدول والإمارات، لأن هذه التسمية هي ألصق بالعصر، وهي أكثر رقة ومطابقة للواقع، وبالمثل أرجحنا فيه ما سمي بالعصر العثماني، لأنه لم يكن عصراً بالمعنى الحقيقي، وإنما كانت حقبة مظلمة، تتمة لعصر الدول والإمارات وثمرة مرّة لما أصاب العرب فيه من انقسام وتفكك»[12].

هذه هي الاتجاهات التي ذهب إليها مؤرخو الأدب المعاصرون، ولعلنا من خلال حديث كل من الدكتور طه حسين والدكتور شوقي ضيف أدركنا بعض الأخطاء التي وقع فيها أصحاب الاتجاه الأول، غير أننا إذا نظرنا على ماذهب إليه كل منهما في تقسيم هذه العصور وجدنا أنهما لم يخرجا عن حيِّز التقسيم السياسي، فعلى الرغم من أن الدكتور طه حسين قد نعى على أصحاب الاتجاه الأول ميلهم إلى التقسيم التاريخي السياسي في تاريخ للآداب العربية فإنه حين قسَّم العصر العباسي إلى ثلاثة أعصر، وجعل بداية العصر الأول منها مع القرن الثاني الهجري، أي قيام الدولة العباسية سنة 132هـ، لم يخرج عن دائرة التقسيم السياسي من تاريخ الأدب، وإنما كان جل همه أنه نظر فوجد بعض الباحثين والمؤرخين ومنهم أستاذه كارلو نالينو يصفون العصر العباسي الثاني بأنه عصر انحطاط، ولمَّا كان يدرس أبا العلاء المعري الذي عاش في هذا العصر الثاني أراد أن يبعد الفترة التي عاشها من دائرة الانحطاط فعمد إلى هذا التقسيم الثلاثي ليجعل عصرين منها عصري ازدهار وقوة، ومن الثالث عصراً داخلاً ضمن الانحطاط والضعف الذي قال به نالينو في تقسيمه الذي مرَّ بنا فيما سبق.

وأما الدكتور شوقي ضيف وإن بدا واضحاً في نقده لأصحاب الاتجاه

---

(11) المرجع نفسه والصفحة ذاتها.

(12) نفسه والصفحة ذاتها.

الأول ـ وهو نقد يبدو في صورة منطقية مقبولة ـ فإننا إذا نظرنا إلى الأمر من وجهة سياسية وجدنا عمله في التاريخ الأدبي يقوم أساساً على التاريخ السياسي، بدلالة أنه يجعل بداية عصر الدول والإمارات الذي قال به هي سنة 334هـ، وهي بداية سياسية بدأت بدخول البويهيين بغداد، ولا يمكن بأية حال من الأحوال أن تكون بداية لمرحلة أدبية في تاريخ الآداب العربية، لأن الحياة الأدبية لدى أية أمة من الأمم لا يمكن أن تحدد بزوال حكم في سنة معينة وحلول حكم جديد في نفس السنة، أو بعبارة أخرى بانتهاء دولة وقيام أخرى مقامها.

ولعلنا لا نعدو الصواب إذا قلنا إن هذه الاتجاهات الثلاثة في تقسيم عصور الأدب العربي منذ عصر بني العباس تجعل الباحث في تاريخ الأدب يقع في خطأ كبير، إذ تدفعه إلى أن يعزل كلَّ مرحلة عزلاً تاماً عما قبلها وعما بعدها، في حين أن واقع الأمر يقول بأن من الصعب جداً دراسة مرحلة ما دون النظر إلى ما قبلها وما أحدثته فيها من تأثير، وهذا ما عناه أنور الجندي حين ناقش تقسيم مؤرخي الأدب لعصور الآداب العربية، وانتهى إلى القول بخطأ هذا التقسيم مشيراً إلى أنه «يعزل مراحل الأدب عما قبلها وعما بعدها، بينما يعجز الباحث المنصف عن عزل تأثر مرحلة في مرحلة أخرى، فكل جيل متلقٍ لنتائج الجيل السابقة ومتفاعل معها، ونتاجه سر من أسرار الماضي، وقوة دافعة في نفس الوقت للجيل الذي يليه»[13].

ثم إن الربط بين السياسة والأدب بصفة عامة يجعل مؤرخي الأدب يهملون قضية تحرك تاريخ الأدب واتجاهه؛ لأنهم في هذه الحال يركِّزون على تحرك السياسة، ويجعلونه همهم الأول، كما أنهم يهملون النوازع الفردية عند الأدباء حين يتخذون العصر وحدة يقيسون عليها الأدباء، ومن ثم يصبح النتاج الأدبي وفق هذه النظرة نتاجاً له طابع عام من وحدة العصر، الأمر الذي يجعل الأديب لا كيان له، وإنما هو تابع لمن سبقه، وهكذا وقفوا في الدراسة الأدبية على القمم الشامخة من الأدباء في كل عصر، ولم يصغوا إلى الأصوات الفردية التي

(13) خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث، أنور الجندي، ط. دار العلوم للطباعة، القاهرة 1975م ص203.

لم تقدم نفسها للسلطة، فارتكزت الدراسة على ذوي السلطان، واستقطبت حول القادة والأمراء وأهمل غيرهم[14].

كما لا يفوتنا أن نوضح أن ربط الأدب بالسياسة قد أخضع الأدب للسياسة إخضاعاً تاماً، وجعل رقي الأدب مرتبطاً بازدهار السياسة، ولكن إن صح ذلك على العصر الأموي والعصر العباسي الأول فهو لا ينطبق على ازدهار الأدب والعلوم في القرنين الرابع والخامس الهجريين[15]، لأنه إذا كان عصر بني أمية وعصر بني العباس الأول قد شهد كلاهما ازدهاراً ورقياً في السياسة والأدب معاً فإن القرنين الرابع والخامس الهجريين قد شهدا ازدهاراً في الأدب والعلوم دون السياسة، هذا فضلاً عن أن هذا الازدهار في الأدب والعلوم لم يقف عند هذين القرنين فحسب، بل تجازوهما إلى ما بعد ذلك بكثير، وبخاصة حين نقف على الأدب والعلم في بيئتي الأندلس والمغرب.

ومن أجل هذا كله نرى أن من الخير أن يسلك الدارسون في الأدب العربي وتاريخه مسلكاً مغايراً لهذه الاتجاهات التي طرحناها فيما سبق، وبخاصة عند دراسة عصر الدول المتتابعة بعهوده السياسية المختلفة، وهو عصر ينبغي أن تجعل بدايته مرتبطة بفترة لا تتصل بقيام حكم وزوال آخر، إذ نريد لهذه البداية أن تكون مرتبطة بفترة التحدي التي واجهت الأدب العربي والفكر الإسلامي، وهي فترة لم تبدأ بسقوط بغداد سنة 656هـ، وإنما بدأت قبل ذلك بكثير عندما بدأت جحافل الصليبيين تزحف على بلاد العرب والمسلمين في المشرق والمغرب معاً، عندها أحس الأدباء والمفكرون أن خطراً حقيقياً بدأ يتهدد الأمة العربية في وجودها، كما يتهدد الفكر الإسلامي والأدب العربي جميعاً[16].

لقد واجه العرب والمسلمون على السواء في أواخر القرن الخامس محناً كبرى، وظلوا في مواجهات مريرة وتحديات قاسية، ومن الطبيعي أن يكون لهذه

---

(14) ينظر مدخل إلى مناهج الدراسة الأدبية، عمر محمد الطالب، منشورات عكاظ، المغرب 1988 ص54.

(15) المرجع نفسه ص48.

(16) ينظر خصائص الأدب، أنور الجندي مرجع سابق ص204.

المواجهات والتحديات أثر جليل في الأدب والفكر، ومن هنا حق لنا أن نجعل تلك العهود التي سبقت عصر النهضة الحديث تبدأ بزحف الفرنجة الصيليبيين على بلاد العرب والمسلمين في الشرق والغرب، وأن يكون ذلك فاصلاً لمرحلة أدبية سابقة ومرحلة تالية، لأنها في حقيقة الأمر قد أحدثت تغييراً جليلاً في مسار الأدب والفكر، وجعلتهما يقومان بدور فعال في حياة الأمة آنذاك، غير أن هذا لا يدفعنا إلى أن نفصل بين هذه المرحلة التي تبدأ بأواخر القرن الخامس الهجري والمرحلة السابقة لها. فلا شك في أن نتائج المرحلة السابقة قد كان لها دور كبير فيما صار إليه الناس في عصر الدول المتتابعة، يتضح ذلك بجلاء لكل من يقف على قضية الحكم الجائر على هذا العصر بأن عهوده كانت عهود انحطاط وضعف.

أما من حيث الأوضاع السياسية التي مرت بالمشرق العربي فإن هذه البداية التي حددناها لدراسة الأدب في هذا العصر، أعني عصر الدول المتتابعة، فقد جاءت مواكبة للزنكيين (489ـ 577هـ) وامتدت لتشمل عهود الأيوبيين (578ـ 648هـ)، فالمماليك (648ـ 923) وأخيراً يأتي العثمانيون (923هـ) إلى عصر النهضة الحديث.

وفي الأندلس والمغرب تقدمت هذه البداية لتشمل جزءاً من عهد المرابطين وعهد الموحدين، ولتشمل أيضاً دولة بني الأحمر التي قامت في غرناطة سنة 629هـ وانتهت بتسليم غرناطة سنة 897هـ على يدي أبي عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر، ولتشمل كذلك دولة بني مرين التي قامت في المغرب الأقصى سنة 664هـ، وكذلك دولة الصنهاجيين في إفريقية التونسية التي حلَّت محل الدولة الفاطمية حين رحلت إلى مصر، ثم دولة الحفصيين التي قامت في تونس سنة 628هـ على يدي أبي زكرياء يحيى بن عبد الواحد، وظلت قائمة إلى أن صار أمرها إلى العثمانيين عام 924هـ.

وينبغي أن نشير إلى أننا إذا كنا قد رفضنا ربط التاريخ الأدبي بالتاريخ السياسي فليس معنى ذلك أننا نرفض تأثير السياسة بأوضاعها المختلفة في الأدب والفكر، غير أن تغير هذه الأوضاع من حال إلى حال، أو من دولة إلى دولة لا

يصلح أن يكون نهاية لمرحلة تاريخية أدبية أو بداية لمرحلة جديدة، فالسياسة في كل زمان ومكان تؤثر في الأدب وتؤثر في الفكر، ولكن تغييرها من وضع إلى آخر لا يشكل مراحلهما التاريخية في حياة الأمة الواحدة.

ب ـ وصفه بالضعف والانحطاط

أما وصف أدب هذا العصر بالضعف والانحطاط فقد صدر من بعض الباحثين المستشرقين والعرب على السواء، ولعلنا لاحظنا ذلك في حديث كل من المستشرق كارلو نالينو والدكتور طه حسين، ولا شك في أن هذا الحكم العام قد صدر من هؤلاء الباحثين بسبب عوامل مختلفة، نودُّ أن نعرضها جملة ثم نفصِّل الحديث فيها بالمناقشة والرأي.

وأول هذه العوامل راجع إلى تقسيم العصور الأدبية الذي اعتمده الجمهور من مؤرخي الأدب منذ نشأته في عصر ما قبل الإسلام وإلى عصرنا هذا الحديث، وثاني هذه العوامل راجع إلى نظرة عصبية للعرب من حيث إن حكام هذه العهود كانوا من غير العرب، وثالث هذه العوامل راجع إلى الحالة السياسية التي عاشتها البلاد العربية في ظل العهود المتتابعة في هذا العصر، كما يرجع عامل رابع إلى الحالة التي انتهى إليها الأدب العربي بشعره ونثره من حيث الأسلوب، وركون الغالبية العظمى من الأدب في هذه العهود وبخاصة العهود المتأخرة منها إلى التكلف والتصنع في خلق العمل الأدبي شعراً كان أم نثراً. هذا فضلاً عن جنوح جماعة من الشعراء غير قليلة إلى التهتك والمجون والنظم الفاضح غير المألوف.

كما أن هناك عاملاً خامساً يرجع إلى جماعة من المستشرقين الحاقدين على العروبة والإسلام، ساءهم أن تكون عهود هذا العصر صخرة صلداء في وجه الصليبيين ومحاولاتهم الدؤوبة في هدم العروبة والإسلام.

ونحن إذا تتبعنا هذه العوامل بالمناقشة وجدنا أن العامل الأول قد سبق طرحه ومناقشته وبيان خطله فيما مضى، من حيث إنه تقسيم رَبَطَ الضعف السياسي الذي كان سائداً في هذه العهود بالأدب، فحكم على الأدب بناء على ما

صارت إليه الحالة السياسية من تمزق وتشتت، وهو مسلك رأينا عدم صوابه فيما سبق. كما بيَّن خطأه أحمد أمين حين أكَّد أن الحالة العلمية والأدبية لا تتبع الحالة السياسية ضعفاً وقوةً، فقد تسوء الحالة السياسية إلى حدٍ ما وتزدهر بجانبها الحياة العلمية والأدبية، وذلك لأن الحالة السياسية إنما تحسن بتحقيق العدل ونشر الطمأنينة بين الناس، ومع ذلك فقد يحمل الظلمُ كثيراً من عظماء الرجال وذوي العقول الراجحة أن يفروا من العمل السياسي إلى العمل العلمي»[17].

ثم مضى فنفى أن يكون انحطاط الخلافة سبباً في انحطاط العلم والأدب، فكان مما قال: «لما استقلت الأقطار أصبحت كل عاصمة قطر مركزاً هاماً لحركة علمية وأدبية، فأمراء القطر يعطون عطاء خلفاء بغداد، ويحلون عاصمتهم بالعلماء والأدباء، ويفاخرون أمراء الأقطار الأخرى في الثروة العلمية والأدبية، كما يتفاخرون بعظمة الجند وعظمة الرجال، فبدل أن كان للعلم والأدب مركز واحد هام أصبحت لهما مراكز هامة متعددة، وأصبح علماء مصر يساجلون علماء بغداد، وأدباء الشام يفخرون على أدباء العراق، وهذا من غير شك يشجع الحركة العلمية والأدبية ويقوِّيها ويرقيها[18].

أما العامل الثاني فإن سيطرة غير العرب على سُدَّة الحكم إن كان قد أدى إلى ضعف في الأدب فإن هذا الضعف يكون منصباً على ما نسميه بأدب البلاط. أما الأدب المعبر عن الأمة الصادر من وجدانها فليس بالضرورة أن يصاب بالضعف، هذا فضلاً عن أن سيطرة غير العرب على مقاليد الحكم في الدولة العربية الإسلامية لم تبدأ في عهود هذا العصر، وإنما بدأت منذ أيام الخليفة المعتصم بالله، ومع ذلك فإن أحداً من الباحثين لم يقل بأن الأدب قد صار منحطاً أو ضعيفاً في عهد هذا الخليفة، أو عهد المتوكل بالله ومن بعده ابنه المنتصر، حيث صار الأتراك يسيطرون على كل شيء في دولة بني العباس.

أضف إلى ذلك أن عدداً من هؤلاء الحكام وإن كانوا غير عرب فإنهم قد اتقنوا العربية بعد أن غزت وجدانهم، وصار منهم الشاعر والكاتب مثل بهرام

---

(17) ينظر ظهر الإسلام، أحمد أمين، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ص96.

(18) نفسه ص 94.

شاه الأيوبي الذي قال عنه، أبو الفداء: «كان أشعر بني أيوب وشعره مشهور»[19]، ومثل قانصوه الغوري أحد سلاطين المماليك البرجية في مصر، فقد كان أديباً شاعراً محباً للعلم والأدب، واسع المعرفة بثقافة عصره، وكان يكتب الشعر بالعربية والتركية[20].

وأما العامل الثالث فالحق يقال إن الأمة العربية الإسلامية قد عانت من التمزق والتشتت في ظل عدد من حكام هذه العهود، خيانات وغدر، وانتكاسات متلاحقة، وأمراء يتناحرون على السلطة، وعدو صليبي يتربص الدوائر، وزحف وثني شامل من التتار، كل هذا عاشه العرب والمسلمون في هذه العهود، وربما دفع هذا التمزق بعض الشعراء والأدباء إلى اليأس والقنوط، والتقوقع في إطار نظم متهافت أو عمل أدبي ممقوت، ولكن هذا لا يصلح لأن يدفعنا إلى إصدار حكم عام نطلقه على أدب هذا العصر في سائر عهوده المتتابعة، وفي مختلف بيئاته، وبخاصة بيئة المغرب والأندلس التي شهدت ازدهاراً ملحوظاً في الأدب والعلم في ذلك الزمن.

فإذا انتقلنا إلى العامل الرابع الذي يتصل بانحراف الشعراء والكتاب إلى التكلف والتصنع وزخرف القول في الشعر والنثر معاً، والميل الفاضح إلى التهتك والمجون، فإن هذا الانحراف لم يبدأ في هذه العهود، وإنما بدأ منذ العصر العباسي، حين اتصل الأدب العربي بالآداب الشرقية والغربية، وأبرزها الفارسي القديم ثم الأدب اليوناني الإغريقي، وهو اتصال دفعه إلى الانحراف وأفسد جوهره، وأصاب مزاجه النفسي بالاضطراب والانحلال، فكما فسد النثر بالسجع والزخرف فسد الشعر بالكشف والغزل الحسي والخمريات، لم يكن انحراف الشعر العربي صادراً من طبيعة فيه، وإنما جاءت العوامل الخارجية المصاحبة لحركة الشعوبية التي كانت تظهر خصومة العرب، وتخفي هدفها الأصيل وهو

---

(19) المختصر في أخبار البشر جـ3 ص152، وقد حقق ديوانه الدكتور غريب محمد على أحمد، وطبعته الهيئة العامة للكتاب، القاهرة 1991م وقال الدكتور غريب عن شعره إنه «حافل بالغريب مملوء بالألفاظ التي تحتاج إلى معاجم اللغة، ينظر مقدمة الديوان ص7.

(20) ينظر مجالس السلطان الغوري د. عبد الوهاب عزّام ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1941م، وينظر شذرات الذهب لابن العماد جـ8 ص113 وما بعدها.

هدم الدولة العربية الإسلامية كلها[21]. ومن ثم فهو ليس عاملاً ناشئاً في هذه العهود، وإنما هو موروث من العصر العباسي، فقد أثرت الشعوبية التي قامت على أيدي الفرس في العصر العباسي في حياة الأدب العربي تأثيراً ملموساً.

هذا الدكتور عمر فروخ يحدثنا عن الأدب في القرن الخامس الهجري فيشير إلى إكثار الشعراء من الحديث في الرسوم الفارسية من النعيم والأعياد كالنيروز والمهرجان، وفي الفخر بتلك الأحوال، وبماضي الحضارة الفارسية في الملك والنسب أيضاً، كما يشير إلى كثرة ورود المجون في الأدب كثرة كبيرة فيقول: إذا نحن اكتفينا بالإشارة إلى محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني المتوفى سنة 502هـ أدركنا أن المجون في القول والعمل كان قد أصبح عادة لا يستحيى منها كثيراً، وكان المجون يذكر في مجالس الأدب والقضاء ذكراً عادياً كأنه موضوع لا يتصل بجانب هو مستور في حياة الناس»[22].

وإذا علمنا أن هذا العامل موروث منذ عصر بني العباس لزم أن نسأل أنفسنا سؤالاً: فلماذا خصت هذه العهود بالانحطاط والضعف في حين أن بعض ما دعا إلى هذا الحكم كان موجوداً قبلها؟ وهو سؤال قد نجد له إجابة شافية إذا وقفنا على العامل الخامس والأخير، وهو عامل يرجع إلى شيوع وصف الانحطاط والضعف على ألسنة بعض المستشرقين الحاقدين، إذ كثيراً ما نلمح ذلك في كلامهم، فالمستشرق الفرنسي بلاشير مثلاً كان يتكلم عن ورود خبر القصائد المعلقات في كتب المؤرخين فجرت على قلمه هذه العبارة الجائرة، قال بعد أن ذكر خبر التعليق في كتاب العقد الفريد لأحمد بن عبد ربه: «ثم تناقلتها الأجيال إلى الإفريقي ابن رشيق ثم مؤرخي عصور الانحطاط كابن خلدون والسيوطي»[23].

وإذا كنا قد أشرنا إلى أن الأدب العربي قد ابتلي في العصر العباسي بشعوبية الفرس وغيرهم من الأجناس غير العربية، فإنه قد ابتلي في عصرنا

---

(21) خصائص الأدب، أنور الجندي مرجع سابق ص171 وما يليها.

(22) تاريخ الأدب العربي عمر فروخ ط. دار العلم للملايين، بيروت 1979م جـ3 ص43.

(23) تاريخ الأدب العربي د. بلاشير ترجمة د. إبراهيم الكيلاني ط. الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1986م جـ1 ص161.

الحديث بشعوبية جديدة قامت على أيدي بعض المستشرقين، وتردد صداها في أقلام كثير من تلاميذهم العرب الذين درسوا على أيديهم وتخرجوا في مدارسهم وجامعاتهم يقول أنور الجندي: «من الاتهامات الظالمة التي أضفاها النقد الغربي على الأدب العربي محاولة تسمية مرحلة العصرين المغولي والعثماني باسم مرحلة الانحطاط، وهي كلمة شاعت في مؤلفات الأدباء في لبنان ومصر وأغلبهم من أتباع المدارس الأجنبية ومعاهد الإرساليات.. ومن الحق أن يقال إن هذا التعبير ظالم، وإن هذه المرحلة إذا أمكن أن توصف بالتخلف سياسياً واجتماعياً فإنها في مجال الأدب والدراسات العقلية والإنتاج الفكري كانت خصبة حافلة، فقد اتسمت بأبرز ظاهرة في تاريخ الأدب العربي كله، وهي ظاهرة التجميع الموسوعي»[24].

هذه هي العوامل التي أدت إلى وصف أدب هذا العهد بالانحطاط حاولنا أن نعرضها في إيجاز موضحين رأينا فيها، ونود أن نضيف هنا شيئاً مهماً هو أن الدراسات الأدبية التي جرت في العقود الأخيرة من هذا القرن ـ الستينيّات، والسبعينيّات والثمانينيّات ـ والتي قام بها نفر من العلماء والباحثين حول أدب هذا العصر، قد أكدّت أن وصم هذه العهود بالانحطاط والضعف حكم فيه كثير من الظلم والإجحاف، فالدكتور عمر فروخ يقول عن هذه الفترة التي تلت الخلافة العباسية في بغداد إنها؛ «ليست قليلة الشهرة فحسب، ولكنها مظلومة أيضاً، إذ يسمى القسم الأخير منها «عصر الانحطاط» تسمية فيها قليل من الصواب والحق وكثير من الخطأ والباطل»[25].

وهو يبني كلامه هذا على أساس أن هذه الفترة كانت غنية جداً بأنواع الأدب ووجوهه، وبنتاج الحياة الثقافية، غير أن الأسلوب قد عانى في أثنائها مقادير متفاوتة من الركاكة، وفي أعقاب هذه الفترة بلغ التكلف في البلاغة عامة، وفي الصناعة اللفظية خاصة مبلغاً عظيماً[26].

---

(24) خصائص الأدب. أنور الجندي ص203.

(25) تاريخ الأدب العربي جـ3 ص5.

(26) نفسه والصفحة ذاتها.

وعلى هذا ففي رأيه إن كانت هناك قلة من الانحطاط فإنما ترجع إلى تكلف الشعراء والكتاب الزخارف البديعية في الكلام الأدبي، وهي لا ترجع إلى كثرة الأدب وتعدد وجوهه، أو نتاج الحياة الثقافية بقدر ما ترجع إلى الكتاب والشعراء، وما اتخذوه من طرائق في التعبير موغلة في التكلف والتصنع، غير أن هذا التكلف ـ وما أوضحنا من قبل ـ ليس سببه هذه العهود، وإنما هو انحراف أصاب الأدب العربي منذ العصر العباسي، ولا يعني هذا أننا نعفي أدباء هذه العهود من المسؤولية، وهي مسؤولية يدل عليها ذلك الإلحاح الشديد على التكلف الذي يبدو واضحاً في كتاباتهم وأشعارهم.

وثمة باحث آخر هو الدكتور عبده عبد العزيز قلقيلة نراه يقول عن العصر المملوكي الذي درس النقد فيه: إنه «لم يكن عصر تخلف عقلي أو وجداني، وبعبارة أخرى لم يكن عصر انحطاط علمي أو أدبي كما قد يظن، وإنما هو على العكس من ذلك تماماً، فقد شهد نشاطاً ثقافياً رائعاً، وبحسبه أنه كان الوعاء الذي وسع تأليف أكثر الموسوعات والمراجع في مختلف العلوم والفنون، ونحن في عصرنا هذا ندين له بالكثير، فلولا نتاجه العلمي والأدبي لما كان من الممكن وصل تيار العلم والأدب عند العرب قبله بتيار العلم والأدب بعده، لكن عمل العلماء والأدباء بتشجيع السلاطين والأمراء هو الذي ربط بين التيارين السابق واللاحق، وعوّض الخسارة التي لحقتنا على يد التتار الذين أقاموا من كتبنا جسراً على نهر دجلة، وما لم يعدموه غرقاً أعدموه حرقاً، وعلى يد الفرنجة الذين أبادوا تسعة أعشار الكتب العربية في الأندلس»[27].

وليس من شك في أن قلة حظ هذه العهود من الشهرة أدت إلى إهمال الجمهور من باحثي الأدب الخوض في دراسة أدبها والبحث فيه، وقد أشار الدكتور محمد زغلول سلام إلى شيء من هذا حين قال: «وقد أغفلت دراسة هذه الفترة في التاريخ الأدبي، ولم توجه لها العناية اللازمة الجديرة بها»[28]. ثم علل لذلك بأن دراسة تاريخ الأدب عندنا كانت منصبة على العصر الأموي

(27) النقد الأدبي في العصر المملوكي ط. دار الفكر العربي القاهرة الطبعة الثانية 1991م ص22.
(28) الأدب في العصر الأيوبي ط. دار المعارف مصر 1967م ص8.

والعصر العباسي في مراحلهما المختلفة، منصبة على جماعة من الشعراء والأدباء، تتردد أسماؤهم وتتكرر، ومن ثم أغفل هذا العصر ومن عاش فيه[29].

وإذا كان الدكتور زغلول سلام يعلل لإهمال دراسة هذه العهود بانشغال الباحثين في التاريخ الأدبي بالعصور الأدبية الأولى، وبالتركيز على أدباء وشعراء بعينهم، فإن الدكتور بكري شيخ أمين نراه يأتي بتعليل آخر إذ يذهب إلى أن «هناك عملية خفية تهدف إلى صرف الباحثين عن دراسة أدب هذه الحقبة والاكتفاء بحكم سريع ظالم عليها، ولسنا ندري سببها إلا أن يكون هذا العصر هو الذي قاوم جحافل الغرب التي استحكمت حيناً من الدهر في هذه البلاد، ودفع الوثنية التي جاءت على سيوف التتار ورماحهم، وملأ المكتبة العربية التي خوت بمصيبة بغداد وسواها بالتراث العربي الإسلامي، وأعاد إلى النفس العربية عزتها وثقتها، ويكفي سبب واحد من هذه الأسباب ليشحن قلوب الشعوبيين والأعداء والمبغضين والمارقين والمنحلين حقداً ضد هذا العصر وآله، وكل ما كان فيه»[30].

---

(29) نفسه والصفحة ذاتها.

(30) مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ط. منشورات دار الآفاق بيروت 1979م ص3.